قصائد ماء القلب

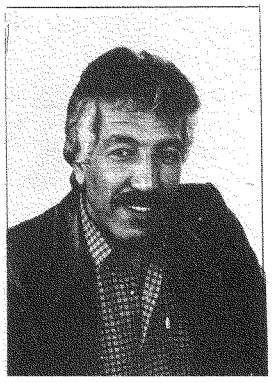

محمد القيسي

مرور صباحيّ

مرَّ باصُ الصَباحْ
عَرباتُ البَريدِ،
السُعَاةُ،
التلاميذُ مرّوا
وَمرَّ الصَبيُّ، فَتَاةُ البنَايةِ،
مَرَّ المُغنّي الحَليقُ بجيتارِهِ كَهلالٍ،
وَمرَّ عَلى البَالِ موَّالُ أمّي هنا
عَاملاتُ التريكو الحزيناتُ،
مرَّتْ بناتُ المقاهي
وَمرَّتْ غُيومٌ إلى الأُفقِ،
أَمْطَرَتِ الأَرضُ،
مرَّ المكانُ،
وَأَعتَمَ فيَّ تَماما
مرَّتِ السِكْرتيراتُ الأَنيقاتُ نحوَ مكاتبِهِنَّ،
مُرورَ الخزامى
وَالعَجائزُ حَذوَ شُعاعِ الظَهيرةِ مرُّوا
ومرَّ الخَليُّونَ لِلّهْوِ،
مَرَّ الجميعُ إلى كلِّ شَيءٍ
ولَمَّاأَزلْ وَاقِفا
الصَباحُ هُنا نفسُهُ مرَّ،
مثلَ مرورِ الصَبَاحَاتِ في كُلِّ يَومٍ،
وَأَنَّتْ عَلى بَابِ قَلبي الرِيَاحُ
مَرَّ هَذا الصَباحُ.

لندن 1997/1/20 صباحاً.

سوق الجلزون

مِنْ أَيِّ جهَاتٍ،
وَفَدَ إلينا الريفيُّونَ ضُحىً،
بِسَرَاويلِهُمُ الفَضْفَاضَةِ،
وَبِمَايَاتِ الكِتَّانِ، وَقَدْ جَعَّدَها
الوَقتُ،
ومنْ أَيِّ جِهَاتٍ وَفَدوا
بِالقُفَفِ الملآنةِ بالتينِ الأَسوَدِ وَالأَخضَرِ،
بِسِلالِ العِنَبِ النَاضِجِ،
منْ أَيِّ حُقولٍ جَاؤوا بِالنَعْنَاعِ،
وَأَكياسِ البَاذِنجانِ،
إلى سُوقِ الجلزونِ،
وَجَاءُوا بِالبَقْدونِسِ،
مَاذا نَفعلُ بِالبَقْدونِسِ،
نحنُ فِلسطينيّو السَنَةِ الأُولى للهجرةِ،
حَتى الخَمَسيناتِ،
إلى آخرِها
.....
.....
.....
!.....
فيما بعدُ عرفتُ،
وَلكنّي لا أَعرفُ وَأَنا في bayswater،
وَحدي الآنَ،
لماذا تحضرُ لي هَيئَاتُ الريفيينَّ قديماً،
أَشكالُ الفُقدانِ،
وَحَاجةُ أُمّي لِلبَيتِ،
وَطَابو البَيتِ،
لماذا يَحضرُ هَذا الفُخّارُ المكسورُ،
وَيكسرُني ثَانيةً،
وَلماذا يحضرُ لي في الوحدَةِ،
شَبحُ الجلزونِ،
وَسُوقُ الجلزونِ،
لماذا يَحضرُ شَكلُ الولدِ الأَوَّلِ لي

كَالرُمحِ الضَامِرِ،
مَشدوداً لِلبنتِ الرِيفيَّةِ،
خَلفَ سِلالِ القَشِّ تَبيعُ،
وَتُومِئُ لي
بإشارةِ عَينيْها النَافِذَتيْنِ،
وَماذا كُنتُ أَرى
وَأَنا أَتبعُها دونَ كَلامٍ فَوقَ الإسْفَلْتِ،
إلى بَوَّابةِ قَريتِهَا
لِأَعودَ بِعِرْقَيْ عَدَسٍ،
وَمَراراتٍ لا حَصْرَ لها؟
أَلِأَنِّي وَحْدي
بَعْدَ غُبارِ الخَمسينِ،
أُعَلِّلُ بُعْدي!

لندن 1997/1/20 مساء،

تعليل البعد

أولاً:

مَرَّةٍ سَحَبَتني دَمعةُ النارنجِ في الليلِ إلى وَرْدٍ سَريرٍ نَابضٍ، في الطَابقِ الرابعِ منْ بُستَانِ نهرٍ، لا أُسمِّيهِ، فَما قُلتُ وَلا قالتْ، وَظلَّ الليلُ يَمتدُّ إلى الفَجرِ، خُلاسِيَّاً وَيَمتدُّ إلى أَنْ حَطَّ بي في سُوقِ هَذا اليَومِ، سُوقِ الجلزونْ.

ثانياً:

كَانَ ذَلكَ قبلَ ثَلاثِ سنينٍ، وَقبلَ تَنقُّلِ عُوليسَ في الأرضِ، دونَ وُصولٍ إلى سَرْوَةٍ عندَ سُورٍ، وَقبلَ وُقوعيَ في شَرَكِ النَايِ، كنّا هُنالكَ في المهرجانِ، وَكُنّا أَتينا مِنَ الأُغنياتِ إلى الأُغنياتِ، عَزَفْنَا مَعَ العَازفينَ رَشَفْنَا سُلافةَ أَيامِنا وَانتظرنا..

.....

.....

.....

ثالثاً:

هَكذَا اكتَملَتْ في شُموعِ اللَيالي
التماعاتُنا العَسْجَديَّهْ

ثُمَ منْ خَيطِ قَلبيَ، شَدَّتْ ضُلوعي
إلى آخرِ المسرَحيَّهْ

فَاتَّخذْتُ مِنَ العُمرِ، أَو مَا تَبَقَّى
طَريقاً إلى هَذهِ المجدليَّهْ.

لندن 1997/1/21 فجراً.

امرأةٌ في مقهى

خَلَعَتْ سُترتَها اللَيلكَ، عندَ البَابِ،
أَلقتْها عَلى المقعدِ،
تَشكيلاً جَماليَّاً،
وَأَعْطَتْ لِلمكانْ

نَكْهَةً أُخرى
وَكَانْ

نَرجسٌ مُرتبكُ الإيقاعِ في نَظرتِها يَبكي
وَدُوريَّانِ عَيناها حَزينانِ،
يَدورانِ بلا معنى
يَدورانِ بلا قصدٍ،
وَلا يَسْتَوضِحَانْ

أَو يَحطَّانِ عَلى غُصنٍ،
وَكانا يَذبلانْ

وَتأَمَّلتُ رَنينَ الصَمتِ في بَرقوقِها الغَافي
تَأملتُ القميصَ الداكنَ الليليَّ،
في وحدته القُصوى
أَميرٌ، وَفَقيراً لِلحنَانْ
وَتَأمَّلتُ: لَها عُنْقٌ مِنَ المرمرِ،
لَم يَلمسْهُ فنَّانٌ،
وَلا عَبثتْ به أَيدي الزمانْ

وتَأمّلتُ: يَداها جَدولانْ

يَستريحانِ عَلى رُكبتها حيناً،
وَحيناً يَسْتكينانِ إلى حقلِ فراغٍ،
وَدُخانْ.

بعدَ حينٍ،
شَعَّ عِقدُ الكَهرَمَانْ

شَعَّ في سِلْسِلَةِ الفضَّةِ فوقَ الصَدرِ،
إذْ مالتْ
عَلى مقعدِهَا الزَّانِ،
وَبَانْ

كُحلُ عَينيها،
أَزاحَتْ
خُصَلَ الشَعْرِ عَنِ الوَجهِ،
أَراحَتْ
رَأسَها ما بينَ كَفَّيها
وَرَاحَ الكَتِفَانْ
يَنْشُجَانْ

مَا الذي تَفعلُهُ المرأةُ في الصَمتِ،
رَمادُ الوَقتِ، يَطفو
حَولَ عَينيها وَلا تَغفو
تُرى تَرقبُ مثلي
مُنذُ أُسبوعٍ هنا غُودو
.....
.....
.....
وَمرَّتْ سَاعتانْ

لم يكنْ ثَمَّةَ مَنْ يَجلسُ، أو
يَشغُلُ هَذا المقعدَ الوَهميَّ،
لا سُترتُها الليلَكُ،
لا العِقدُ،
وَلا الريحُ التي هَزَّتْ
جُذوعَ السِنديانْ

لم يكنْ غَيريَ مَنْ يَرقبُ،
أَو يَنشجُ،
في هَذا المكَانْ

منذُ أُسبوعٍ،
وَلَمْ
يَنطقْ
كَمانْ.

لندن 1996/10/29

درس النهر

مُنذُ عَامينِ حَبيبي
مُنذُ عامينِ تماماً
أَو يَزيدْ
وَأَنا في المَركَبِ السَكْرانِ،
لا أَلوي عَلي شيءٍ،
وَمِزمَاري يُعيدْ:

فَرَحي أَنتَ،
وَأَزهاري التفاتاتُكَ نَحوي
وَمَساءاتُكَ عِيدْ

مُنذُ عامَيْنِ حَبيبي
كنتُ أَودعتُ بلادي
في صَناديقِ البَريدْ

وَتَعلَّلتُ بِدَرسِ النَهرِ،
لا يَبقى عَلى حَالٍ،
وَيُغوي بِالبَعيدْ

هَكذا جُبتُ أَقاصيكَ،
وَسَوَّيتُ تِلالي
مثلَما أَنتَ تُريدْ

وَحَفِظْنَا أُمَّ درمانَ،
نَقشْنَا نَمنماتِ القدسِ وَالنيلِ،
عَلى كُمِّ النَشيدْ

مُنذُ عَامينِ حَبيبي
مُنذُ عامينِ تماماً
أَو يزيدْ

وَأَنا أَسكبُ مَاءَ القَلبِ،
في آبارِكَ الظَمأى
وَما خَفَّ الوَقيدْ

مُنذُ عَامينِ حَبيبي
لَفَحتْني الرِّيحُ،
وَالبردُ شَديدْ!

لندن 1996/10/24